ذكرى الخنساء

* * *

عَلَى اشلاء القتلى خلال انين الجرحى وحشرجة الارواح يتصاعد اليوم الى السماء الصامتة عويل الام والاخت والزوجة — بكآء الحنان والتضحية عَلَى الانسانية الوحشية المتطاحنة .

هو عويل الاسى نسمعه متصاعداً من كل بيت هلك رجاله ودكّ عماده فيذكرنا بقسمة الامرأة التي حُتم عليها قبل هذه الايام أن تنوح عَلَى فقد شقيقها الرجل . ويعيد الينا ذكرى نساء كثيرات اشتهرنَ بالاخلاص في حزنهنّ عَلَى رجالهنّ يرصع ذكرهنّ صفحات التاريخ المظلمة وفي مقدمتهنّ امرأة من شهيرات العرب الاقدمين لا يُذكر الحزن والنواح الا ذُكر اسمها عَلَى الاثر .

تلك الامرأة هي الشاعرة الشهيرة الخنسآء .

الان ، وفي كل بيت خنسآء تجود بالدموع وتعيد النوح والتعديد ، يجدر بنا ان نذكر كلمة مختصرة عن هذه الامرأة العجيبة باخلاصها ، العظيمة بدموعها ، التي رأى جبران المتفنن ان يخلق لها رسماً أوحته اليه مخيلته القديرة . وهو رسم يراه القارىء بازاء هذه الصفحة ، يتأكد لمن يتأمله فيه أن مصوره أشرف من عالم الغيب وحلّق فوق الدهور الغابرة حتى

تخطاها وهبط على بلاد العرب في عصر الجاهلية وقصد مسارح قبيلة بني سليم ، وهنالك رأى بين الخيام المحدودة والرماح المركوزة امرأة قد تأصل الحزن في كل جارحة من جوارحها تقدم من دموعها ذبيحة اخلاص على قبر اخيها القتيل ، فوعى صورتها في ذاكرته ونقلها الينا كما رآها . وكأني بها تنطق في الرسم بهذه الابيات التي ندبت بها اخاها صخراً

يؤرقني التذكر حين امسي فاصبح قد بليت بفرط نكس
يذكرني طلوع الشمس صخراً وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

. . . . .

ولدت الخنساء في زمن الجاهلية ودعيت تماضر ثم لقبت بالخنساء — والخنساء الظبية — لجمالها الرائع . ويقال بل دعيت بالخنساء لان انفها كان اخنس أي فيه تأخر عن وجهها .

شبت تماضر في أهل هم سراة قومهم . وكانت ذات جمال بارع فتهافت عليها الخطاب من سادة العرب وفرسانها . ومنهم دريد ابن الصمة الذي كان يلقب بشيخ العرب لسطوته وشهرته ومكانته السامية . قيل انه رآها يوماً وقد خفقت ثيابها مشغولة في عمل منزلي فراقبها من بعيد مشغوفاً وهام بها لاول نظرة . وتغزل بها في اشعاره . وأتى اباها خاطباً فأحسن استقباله وقال له —

« مرحباً بك ، أبا قمرة . انك الكريم لا يُطعن في حسبه ، والسيد لا يُرد عن حاجته ، والفحل لا يُقرع أنفه . ولكن لهذه الامرأة في نفسها ما ليس لغيرها . وانا ذاكرك لها وهي فاعلة . » ثم دخل الى ابنته وقال لها — « يا خنساء ، اتاكِ فارس هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين . » فقالت — « يا ابتِ ، أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ومتزوجة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد . »

رفضت الخنساء ان تتزوج دريداً كما رفضت غيره . ولا يعجب القارىء فالنساء في عصر الجاهلية المظلم كنّ ينلن احياناً من الحرية اكثر مما نحلم به نساء الشرق اليوم . والخنساء عرفت حقوقها في الحرية فتمسكت بها ورفضت ان تتزوج اعظم زعيم عربي في ذلك الحين رغم ارادتها ولم تتقيد بارادة أبٍ او مسيطر .

وتزوجت الخنساء بعد ذلك رجلاً سرياً من بني عمها وولدت له الاولاد . على ان زوجها كان مبذراً متلافاً . فبدد ماله في وقت قصير وأمسى فقيراً لا يكفي حاجات عائلته . فهبت الخنساء تستغيث باهلها فاغاثها اخوها صخر . وهو زين اخوتها وسيد قومها وفارس قبيلته المشهور . فقاسمها ماله . وكان يتعهدها بمثل ذلك كلما شعر بحاجتها الى ان اصيب بطعنة في احدى غزواته فاستعصى بروءها وغادرته طريح الفراش اعواماً لا يُعلم أميت فيبكى أم حي فيرجى . فعله الاهل جميعاً — والناس مفطورون على كره المصائب — وملته زوجته سليمى الا اخته الخنساء . فكانت لا تنقطع عنه

عيادته والاهتمام به وتود لو استطاعت ان تفديه بحياتها · وفي ذلك يقول صخر —

أرى امّ عمرو لا تمل عيادتي وملّت سليمى مضجعي ومكاني

ثم توفي صخر من الطعنة فترك في قلب اخته حسرة لا تطفأ ولوعة لا تبرأ رافقتها الى القبر · فجعلت ندب اخيها باشعارها ديدناً لها · وبالاجمال فقد كانت اشعارها كلها بكاء عَلَى اخيها · وما ديوانها الا تمثال حي خلدت به اسم اخيها صخر قبل اسمها ·

حملت الخنساء عَلَى رأسها اكليل شوك من الاحزان والالام كل حياتها · ولم تمحُ يد النسيان ذكر اخيها من قلبها · ولم يسدل كر الزمان ستار الخمود عَلَى لواعج احزانها فظلت امينة تندب وتبكي بدمع عينها وبدمع شعرها حتى مسخ الموت — مريح البائسين — بيده المعزية عبراتها وانقذها من مصائبها الارضية ·

ماتت الخنساء في عصر الاسلام عجوزاً هرمة · ولم تطرد انوار الديانة الجديدة التي انبثقت امامها في صحارى العرب اشجان قلبها · ولم تُنسها اخاها الفتوحات والامجاد الجديدة حتى ولا مقتل بنيها فحافظت عَلَى ذكرى صخر في قلبها ولم تكف عن رثائه · ويحكى عنها ان عائشة زوج رسول الاسلام زارتها يوماً فرأت عليها شعاراً من مسح قد لبسته عَلَى جسدها مما يلي البشرة فمتبت عليها لبسه وقد نهى الاسلام متابعة مثل ذي الشعائر الجاهلية · فأبت

الخنساء الا ابقاه حزناً عَلَى اخيها فلم تخلعه حتى ماتت

. . . . .

لا يصح لمن يجيل فكرته في حياة الخنساء دارساً مستفيداً الا ان يعظم هذه الامرأة الجاهلية ويحترمها ·

يعظمها لاخلاصها في حبها وحفظها جميل اخيها وذكراه حتى القبر والوفاء حتى الموت · وفي ذلك عبرة لمن يداوون أحزانهم بالنسيان السريع

ويحترمها لمحافظتها عَلَى حريتها في انتخاب الزوج ورفضها الجاه والغنى في زيجة لم تطب لها · وفي ذلك امثولة لفتيات هذا العصر ·

فلنحترم ذكرها ولنعظمها · ولنضعها في مصاف بطلات العرب القلائل الخالدات · ولنذكر انها خلدت باخلاصها ·

لاأنسبنّ الاسلام نسبة لم ينسبها احد قبلي — الاسلام هو التسليم · والتسليم هو اليقين · واليقين هو التصديق · والتصديق هو الاقرار · والاقرار هو الاداء · والاداء هو العمل ·

(علي ابن ابي طالب)